سوري وحر

عثمان الجديد

Moroccan Writers ©

جميع الحقوق محفوظة

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين مادته

بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء

كانت إلكترونية أو ورقية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو

خلاف ذلك إلا بموافقة خطية من المؤلف مقدّما

Moroccan Writers ©

لطالما تكون الحياة صعبة لكن لا يأتي ليل إلا ويأتي بعده الفجر هكذا كان يهمس جدي في أذني كل ليلة وهو يحملني بين يديه بينما تنزل الصواريخ فوق رؤوسنا ونحن نجتمع لنصلي ونطلب الشهادة أو النجاة من هذا البطش. آسف لم أعرف بنفسي، أنا محمد لاجئ سوري في المغرب منذ شهر، لقد أتيت لهذا البلد الكريم بعد ان احتلت بلدي جائحات الثورة من كل مكان ودبت نيران الحرب لم أعد اعرف مدينتي بين الاطلال المدمرة والجثث المبعثرة التي فقدت قيمتها حين فقد الانسان قيمته وصار يقتل بدون سبب. لازلت أتذكر الرحلة من مدينتي حلب في آخر حافلة ذاهبة وأختي الصغيرة بين يدي وانا أرى مدينتي تتضاءل بين عيني إلى أن لم أعد أراها وهي تتوارى بين إطلاق النار وناس تركض لتستنجد ولكن ما من منقذ. أتيت برا وبحرا إلى أن وصلت الى البلاد الموعودة، الديار الإيطالية حيث قيل لنا أن الناس ترحب بنا وأن المساواة والحقوق لكل الناس. ما إن وصلت حتى التفت الجمارك من حولنا وبدأت تفتشنا من كل صوب ونرى القلق على وجوه المسافرين "الغير اللاجئين" نرى الناس من كل الأجناس تمر إلا نحن ننتظر متى يأتي الدور ويُسمح لنا بدخول الجنة الموعودة بعيدا عن النيران المضرمة في كل مكان، بعيدا عن الظلم وبعيدا عن كل المآسي والأحزان. ما إن فتح الباب حتى أُخذنا بالعنف الى الملاجئ، لم نعرف أين نحن ولا متى وقت خروجنا إلا أنني حضنت أختي الصغرى وأنا أرى شرارة الكره في كل من حولنا وهم يروننا ندخل بلادهم وهم لا يعلمون حرقة ترك بلدك وبيتك بشق الأنفس إلا لتهرب وليس أمامك إلا الرحيل أو الموت، حضنت اختي فهي كل ما تبقى لي لأتذكر وطني وبيتي، حضنتها وهي لا تعرف لم الناس حولنا يصرخون ويعنفوننا أينما ذهبنا، حضنتها لأن براءتها أقوى من شر العالم. كنا من أواخر اللاجئين القادمين للديار الأوروبية، فبعد كل المشاكل مع اللاجئين أقفلوا الحدود بعدنا إلا اننا كنا ندفع ثمن أخطاء لم نقترفها فقط لأن لون بشرتنا ليست كلون بشرتهم ولغتنا ليست كلغتهم، إلا انني تحملت كل المقاس للعيش وجلب قوتِ يومي ولأختي، لإعطائها حياة لم تحلم بها ولتعيش كأي طفل يدرس وينام ويحب ويلعب.

كانت للحياة سيرورة عادية, أعمل لقوت يومي و أتكفل بأختي و دراستها و نعيش في الملجأ الذي يقطن به اكثر من ألفي شخص في ظروف لا إنسانية, إلا أن الكل كان شديد الشوق لموطنه و مليء بالأحزان, كنا كالعائلة الواحدة, تدق ساعات الليل فنجتمع لسماع كل من البلدان تمثل نفسها بأغانيها و تحس أن معظم الأغاني تملؤها الأحزان و الشوق للوطن رغم اختلاف اللغات إلا ان الإحساس ذاته, فمهما اختلف لون البشرة و اختلفت الثقافات فالموطن هو كل ما نملك و كل ما نعرف, و لكن ما لم نعلمه هو رغم أن الحياة بدت و كأنها

تبتسم لنا إلا أننا لم نتوقع ما لم يكن في الحسبان...

كنا نجلس في وسط ساحة الملجأ نسمع المذياع لنتلقط أخبار العالم، تارة نسمع أخبار بلداننا و تارة نسمع أخبار بلدان لم نسمع بها قط, إلى أن جاء خبر الفيروس الملعون الذي انتقل من الصين و حل بإيطاليا. دب الهلع في الملجأ والكل يحاول الرحيل في كل صوب واتجاه، فقامت السلطات بمحاولة تخفيف الوضع واحتواء الذعر لكنهم أخفقوا ورحل معظم اللاجئين لبلدان اخرى في آخر الطائرات الراحلة. أخذت كل الأموال المتبقية من عملي لشراء تذكرتي طائرة قادمة نحو بلاد الأمان، 'المغرب'، لم اعد احتمل الترحال فروحي وقلبي تعبا بين التجوال هنا وهناك إلا انني لم أستطع البقاء هناك لترك الموت ينهبني وأختي كما نهبت كل عائلتي وأحبابي.

كانت اجراءات المرور صعبة لكن ليست بصعوبة الإجراءات بالديار الإيطالية. في أيامي الأولى حاولت البحث عن عمل ولكن لم أجد من يأويني ويتحمل لاجئا في جائحة كهذه وكل أموالي باءت بالانتهاء. أرى اختي وهي تبتسم لجمال المغرب وناسه المرحبين بنا ولكن لم يعد لي مال لاستئجار البيت فلم أجد مكانا أنام فيه غير الشارع. ننام في الشارع ليلا ونجوب نفس الشوارع صباحا لإيجاد قوت يومنا إلا ان النظرة الجوع والحاجة على وجه أختي كان تعتصر قلبي واخبار الفيروس ينتشر أكثر في المغرب، وكان يقلقني أكثر وأكثر خصوصا بعد ان فرض حظر التجول على الناس والكل وجد ملجأ يختبئ فيه ومؤونة تكفيه ليحتمي، إلا انا وشعبي نجوب الشوارع، أو على الاقل من لم يحالفه الحظ منا، فالشرطة توقفنا عشر مرات في اليوم لتسأل عن ورقة تفسر خروجنا ولكن ما يفسر خروجنا هو تاريخ من الدمار لا ورقة ولا كتاب قد يفسر لم نجوب الشوارع....

أحسست بالضعف والفشل وانا أقيس حرارة اختي المرتفعة وأسمع سعالها المشتد. لم أكن أريد الاقتناع بأن الفيروس أمسك بها واحتل كيانها كما احتلت الحرب بلادي وكما احتل الموت عائلتي، لم أرد خسران آخر أمل لي في الحياة فهرعت لأقرب مستشفى أطلب النجدة لأختي وهي تحتضر بين يدي وأرى الحياة تدق أبواب الخروج بين عينيها. وصلت للمستشفى أطلب النجدة إلا ان الصف كان اطول مما كانت اختي قد تتحمل، فصرخت طالبا النجدة من أي أحد كما صرخت طالبا النجدة فارا من نيران بلدي وكما هربت من الموت واختي بين يدي الآن أطلب النجدة للملاك الصغير بين يدي بوجهها التعب وجسمها الهزيل. حاولت جاهدا إدخالها للطبيب الذي أخبرني أن الأوان قد فات ولم يعد هناك أمل. لم يبق الا انتظار انتشال روحها، فقد أخذها الفيروس إلى مكان أمها وأبيها، وأهلها وأحبابها إلى بيت لا أحد يأخذه منك

Moroccan Writers ©

ولا كره ولا حسد.

دخلت ارى جثتها فكانت كالملاك، تقدمت نحوها وانا أنعل الفيروس الذي أخذ مني أملي الوحيد وفي نفس الوقت أشكره لتخليصه أختي من عذابها. ما كان مني إلا أن أدفنها لوحدي، ما من أحد يغامر أن يدفن مصابة. وأنا ادفنها، أرى كل ما عشناه. أتذكر بلدي وأنا أركض ألعب معها بين أزقة حلب ورائحة طبخ أمي وأبي وهو يبتسم لنا، تذكرت جدي وهو يحتضننا بعد أن رحل أمي وأبي، تذكرت أحلامها وهي تريد أن تصبح صحافية تكتب عن الناس وهمومها، أتذكر وجوه أبي وأمي وجدي وأنا أدفنهم بعد أن أخذهم الموت مني، لك الله يا اختي. رميت آخر حبات التراب وأنا أسعل سعالا حادا، لم أتمالك نفسي حتى سقطت أنا الأخر مرميا على الارض قرب قبر أختي الناس حولي تصرخ لإنقاذي وانا أبتسم وأقول

.ها هو فجري قد جاء كما وعدتني يا جدي

تمت

Moroccan Writers ©